ميتافيزيقيا

الدرس الخامس عشر

القدّيس توما الأكويني

(3)

أبدية العالم

نحن الآن في الجزء الأوّل من الخلاصة.
تأتي هذه الفكرة من أرسطو ونجدها مطوّرة في تعليقات إبن رشد.
تأتي إذاً من أرسطو، ونجدها مثلاً في **مقالة النفس** وفي تفسير إبن رشد لها.
المشكلة تكمن بالطبع في عدم تناسق هذه الفكرة مع العقيدة المسيحية.
فالتسليم بعالم أبدي يتناقض مع الخلق، ومع صفة الله كإله خالق.

نجد المشكلة بوضوح كبير عند الفيلسوف اليهودي مايمونيدس، في كتابه **دليل الضالين**. وهو يقول ما فحواه :
إذا ما نظرنا إلى أعمال أرسطو والفلاسفة العرب، لا نجد إثباتاً كافياً لأبدية العالم.
ولكن، وفي نفس الوقت، لا يستطيع العقل وحده أن يبرهن أنّه قد حدث خلقٌ في الزمان.
لذا علينا أن نقبل بكل بساطة بأنّ ذلك يعود إلى الوحي/الرؤيا (Offenbarung, révélation).

حسناً، على كلٍّ ... سيدحض توما أبدية العالم، إن كانت مؤسَسة على تفكير يبدأ من طبيعة الله، أو المخلوقات، أو الفعل الخالق.

1. إبتداءً من الله
كان الرافضون للخلق يقولون بأنّه إذا كان ممكناً فهو يعني تغيّر في الله، وجود ما قبل وما بعد، ممّا يناقض ذاته.
فيجاوب توما :
لو كان ذلك صحيحاً، لوجب التسليم بالخلق كفعلٍ في الزمان. ولكنّ المشكلة تزول ما أن نعرف بأنّ الله قد خلق الزمان والعالم معاً.
هذا الزمان متناهي، ويعطيه الله حدوده.
وبعبارةٍ أخرى، كون العالم جديد، أي قد خُلق، لا يعني وجود "قبل" و"بعد" في الله نفسه، ولا في ذاته≡وجوده ولا في إرادته – ذاته≡وجوده≡إرادته.
أراد الله دائماً وأبداً الخلق مع زمانه وحدوده المعيّنة.
وبالتالي ليس هناك من قبل ومن بعد في الله، ليس هناك من تغيّر فيه، فيبقى مطلقاً.

2. ابتداءً من المخلوقات
تأتي الفكرة الثانية القائلة بقدم العالم من كتابي أرسطو في **الميتافيزيقيا** و**علم الطبيعة**.
يقول الكتابان بوجود نوعين فقط من الحركة :
الحركة الأبدية
الحركة التي تلي حركة أخرى تبدأها.
يقول توما : يجب أن نضيف إلى ذلك أنّ الخليقة، أو بشكلٍ أدقّ القوّة الخالقة تأتي بتكوين، تكوّن حركة.
بقوله ذلك، يدحض ما يقوله الذين يعتمدون على تعريف اللحظة في **كتاب الطبيعة**.
كانوا يقولون : كلّ زمانٍ يبدأ يسبقه زمان آخر، لأنّ كلّ زمانٍ يبدأ إنّما يبدأ في اللحظة.
وللحظة تعريفان : هي حدود نهاية زمان، وحدود بداية زمانٍ آخر.
فيقول توما :
من الممكن التفكير بلحظة أولى مطلقة، تكون حدوداً من جهة واحدة، أي بداية، بالضبط ما يمكننا أن نفكّر بلحظة هي حدود كنهاية زمان دون أن تكون حدود بداية زمانٍ آخر.
هتان اللحظتان، ليستا في عالم الحواس بكلّ بساطة، ولكن يمكن برهنتهما بالكامل كمفهومين، حقيقين من وجهة نظر غلهية أو من وجهة نظر التخطيط الإلهي.
يمكنكم قراءة كلّ ذلك في الكتاب 2، الفصل 34.

3. إبتداءً من الفعل الخالق
كانوا يقولون : صنع شيءٍ ما، إعطاءه الكيان، إنتاجه – ال ποίησις – يتطلّب في كلّ مرّة ودائماً شيئاً يُنتَج منه، مادّة أولى في النهاية، هيولى . ويتطبق ذلك على العالم. إذ "لا يأتي شيء من لاشيء" أو "لا يُصنع شيء من لاشيء".

ونعرف أنّه لا يمكن أن يكون هذا الشيء الله نفسه، لأنّه يصبح عندها هيولى. وبالتالي يجب أن يكون هناك هيولى أبدية كما الله هو بدوره أبدي.
يقول توما الأكويني :
تخلط هاتان الفكرتان بين شيئين مختلفين :
التكوين من الطبيعة أو إبتداءً منها، في ال φύσις، كما نجده في كتاب أرسطو **في التكوين والفساد**، والخلق.
في التغيّر الطبيعي، أي في ال φύσις، هناك مادّة تبقى عندما دائماً عندما نذهب من شكلٍ بالفعل إلى شكلٍ آخر بالفعل.
ولكنّ ذلك لا يتطبق على الخليقة. اللاكيان ك"ما ياتي منه" ليس بشيء.
ويكفي أن نترك **علم الطبيعة** ونذهب نحو **الميتافيزيقيا**، التي ترينا بأنّ الإنتاج دون موضوع (Subjekt) ممكن، أي أنّه يتوافق مع مبدأ اللاتناقض.
وبالتالي يمكننا القول دون أي مشكلة أو تناقض : من الممكن لشيءٍ ما أن يُنتج، أن يدخل في الكون، أن ينتقل من الممكن إلى الفعلي، دون أن يكون قد وُجد بأيّة صورة من قبل. من الكافي أن يكون هناك قوّة عاملة تؤسسه، تعطيه أساساً، ألا وهي قوّة الله كإله خالق.

النهاية